

البنية العامة للخطاب النثري عند النقاد و البلاغيين العرب

د. مصطفى البشير قط

جامعة المسيلة

ملخص المقال

يتناول هذا البحث إشكالية البنية العامة للخطاب النثري عند النقاد و البلاغيين العرب ، فعلى الرغم من أن البناء العام للخطاب الأدبي من القضايا التي يهتم بها علم الأسلوب الحديث ، إلا أن النقاد و البلاغيين العرب القدامى ما انفكوا يؤكدون على هذه الخاصية في الخطاب الأدبي عموماً ، والثنائي منه على وجه الخصوص ، بدءاً من بنية اللفظ المفرد إلى ترابط المفردات داخل الجمل ، وترابط الجمل داخل الفقر منذ مطلع الخطاب إلى نهايته.

Cette recherche étudie la problématique du structure générale du discours prosaïque chez les critiqueurs et éloquents arabes, de même que la structure générale du discours littéraire est parmi les sujets pris en considération par la stylistique contemporaine, les anciens critiqueurs et éloquents arabes n'hésitaient pas à insister sur cette caractéristique dans le discours littéraire en général, et spécialement le prosaïque; commençant par la structure du mot singulier vers la liaison entre les mots dans la phrase et la liaison des phrases dans les paragraphes depuis le début du discours jusqu'à sa fin.

يعد البناء العام للخطاب الأدبي من القضايا التي يهتم بها علم الأسلوب الحديث و"دراسته تقتضي الوقوف عند ترابط الجمل، و ترابط الفقر و الفكر منذ البداية حتى النهاية"⁽¹⁾ ، وهي قضية نالت حظها من اهتمام و دراسة النقاد العرب القدامى سواء على مستوى الخطاب الشعري أم على مستوى الخطاب النثري.

ونجد في التراث النقدي العربي من النقاد من عد الوحدة مزية من مزايا الخطاب النثري الفارقة له عن الخطاب الشعري، و الحقيقة أن النقاد العرب القدامى لم يهتموا بوحدة العمل الفني في الشعر قدر اهتمامهم بها في النثر، و ربما يرجع ذلك إلى أن هذه الوحدة لا تتوفر في الخطاب الشعري العربي القديم بشكل واضح ، بينما هي سمة بارزة في الخطاب النثري ؛ فأبو اسحاق الصابي مثلاً يرى أن أبيات القصيدة يأتي "كل بيت منها قائماً بذاته ، و غير محتاج إلى غيره"⁽²⁾، بينما النثر " مبني على مخالفة هذه الطريق، إذ كان كلاماً واحداً لا يتجزأ و لا يتفصل إلا فصولاً طويلاً "⁽³⁾ .

و يجعل أبو حيان التوحيدي " الوحدة" من أسس المفاضلة بين الخطابين الشعري و النثري، و يرى من شرف النثر " أن الوحدة فيه أظهر ، و أثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، و هو إلى الصفاء أقرب، و لا توجد الوحدة غالباً على شيء إلا كان ذلك دليلاً على حسن ذلك الشيء و بقاءه و بهائه و نقائه "⁽⁴⁾ .

و كذلك نجد من النقاد من يجعل " الخطاب النثري " مثلاً للخطاب الشعري في وحدته، و ترابط أجزائه، كابن طباطبا الذي يقول : " و يسلك (الشاعر) منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم، و تصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولاً كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه - على تصرفه في فنونه - صلة لطيفة "⁽⁵⁾ ، فهو يرى أن على الشاعر أن يقتفي آثار الناثر في صياغة قصيدته، بحيث تأتي أبياتها متماسكة منسجمة مترابطة مع استعمال حسن التخلص من غرض إلى آخر، تماماً كما يحسن الناثر التخلص من فصل إلى آخر في رسائله دون أن يحدث خللاً أو فجوة بين فصول الرسالة ، و هو المعنى نفسه الذي يوكده الحائمي بقوله : " وتأتي القصيدة في تناسب صدورها و أعجازها، و انتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، و الخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء "⁽⁶⁾ .

و قد استعمل النقاد العرب عدة مصطلحات للدلالة على " وحدة الخطاب " منها: النظم، و النسق، و المشاكلة، و البناء، و التأليف، و الرصف، و النسخ .. الخ⁽⁷⁾ ، ووكد هؤلاء النقاد على أهمية " النظام " أو " النسق " في الخطاب ، بل جعلوا ذلك

من أولى الأولويات في عملية الابداع على نحو ما نجده في قول المبرد: "و أول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق، و أن يوضع على رسم المشاكلة"⁽⁸⁾ ويعيب الجاحظ ما في الكتابة "من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، أو من تقطيع نظام"⁽⁹⁾. و يعد التوحيدي "البناء" الذي يسميه "المركب" شيئاً أساسياً في الخطاب الأدبي سواء أكان شعراً أم نثراً به يتحقق التفاضل بين الأدباء، إذ يقول: "و التفاضل الواقع بين البلغاء في النظم و النثر إنما هو في هذا المركب الذي يسمى تأليفاً و رصفاً"⁽¹⁰⁾، فالمفاضلة بين الأدباء لا تقوم على أساس المعنى الذي هو قاسم مشترك بين جميع الناس، و إنما تقوم على أساس الصياغة، و ما تبنى عليه من حسن السبك، و جودة الرصف و التأليف، فالخطاب "أدبي بحكم صياغته و أسلوبه و طريقتة و وظيفته اللغوية فيه"⁽¹¹⁾، بل إننا نجد ابن وهب ينفي عن الخطاب الأدبي أدبيته إذا انعدم فيه البناء أو النظام، إذ حد البلاغة عنده "القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، و حسن النظام، و فصاحة اللسان"⁽¹²⁾، ثم يشرح معنى قوله لفظاً لفظاً إلى أن يصل إلى مصطلح "حسن النظام" فيقول: "و زدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى، و لا يحسن ترتيب ألفاظه، و يصير كل واحد مع ما يشاكله"⁽¹³⁾، و يضرب صاحب البرهان على حسن النظام مثالا من الخطاب النثري قول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في بعض خطبه: "أين من سعى و اجتهد، و جمع و عدد، و زخرف و نجد، و بنى و شيد؟"، و يعقب عليه بقوله: "فأتبع كل حرف بما هو جنسه، و ما يحسن معه نظمه، و لم يقل: أين من سعى و نجد، و زخرف و شيد، و بنى و عدد؟ و لو قال ذلك لكان كلاماً مفهوماً مستقيماً، و كان مع ذلك فاسد النظم، قبيح التأليف"⁽¹⁴⁾.

و يبين ابن المدبر أهمية البناء في الخطاب الأدبي بعده نظاماً أو نسقاً متكاملًا، كل لفظة فيه تأخذ مكانها المناسب لها فيبدو كالثوب الجديد الذي لا رقاع به، فإذا اختل نظام الخطاب، و أخذت الألفاظ فيه غير مواقعها اللائقة بها بدا كالثوب المرقع الذي أسىء تربيعة، و ذلك حينما يقول: "فأدر الألفاظ على أعكانها، و أعرضها على معانيها، و قلبها على جميع وجوهها فأى لفظة رأيتها في المكان الذي ندبتها إليه، فانزعها إلى المكان الذي أوردتها عليه، و أوقعها فيه، و لا تجعل اللفظة قلقة في موضعها، نافرة من مكانها، فإنك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه، و أفست المكان الذي أردت إصلاحه، فإن وضع الألفاظ في غير أماكنها، و قصدك بها إلى غير نصابها، إنما هو كترقيع الثوب الذي إذا لم تتشابه رقاعه و لم تتقارب أجزاءه، خرج عن حد الجدة، و تغير حسنه"⁽¹⁵⁾.

غير أن ابن المدبر من جهة أخرى يبين مدى صعوبة بناء الخطاب الأدبي الكامنة في صعوبة ظاهرة الاختيار إذ يقول: "و ليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ، و قصدك بها إلى موضعها، لأن اللفظة تكون أخت اللفظة و قسيمتها في الفصاحة و الحسن و لا تحسن في مكان غيرها"⁽¹⁶⁾، وربما تأتي الصعوبة التي يتحدث عنها ابن المدبر من أن إحكام بناء الخطاب يكون في مرحلة تالية لإبداعه، أي مرحلة المراجعة والتنقيح التي يوصي بها النقاد، و يسميها الصولي في الكتابة الفنية "عرض الكتاب" وذلك "إذا أمرته على طرفك بعد فراغك منه لئلا يقع فيه خطأ"⁽¹⁷⁾، ذلك أن الكاتب في مرحلة الإبداع يكون في حالة إلهام و تلقائية في التعبير لا تسمح له بالتدقيق فيما يبدع لسد الثغرات و تلافي العيوب و النقائص في بنية الخطاب، فإذا انتهت فترة الإبداع أعاد النظر فيما كتب، و قد نبه على هذه الحقيقة الجاحظ بقوله: "... فإن لا ابتداء الكتاب فتنة و عجا، فإذا سكنت الطبيعة، و هدأت الحركة، و تراجعت الأخلاط، و عادت النفس و افرة، أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب"⁽¹⁸⁾.

وواضح أن مرحلة التنقيح تخص الخطاب النثري الكتابي بالأساس ، أما الخطاب النثري الشفهي فإنه يعتمد على البديهة والارتجال وليس لصاحبه فرصة للتنقيح والمراجعة ، وعلى الرغم من ذلك لم يعف النقاد الخطيب من ضرورة تحضير خطبته سلفاً في ذهنه والاستعداد لها (19) .

و من الطبيعي أن تكون مرحلة التنقيح و المراجعة أصعب من مرحلة الابداع والخلق، و قد تساءل أبو حيان التوحيدي عن سبب ذلك فقال : " لم إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر في كلمة من كلام ، وقد اختل شيء منه ، و بيت قد انحل نظمته ، و لفظ قلق مكانه : هات بدل هذا اللفظ لفظاً و مكان هذه الكلمة كلمة ، وموضع هذا المعنى معنى ، تمأنت قوته ، و صعب عليه تكلفه ، و بعل بمزاولة ذلك رأيته ، و لو رام إنشاء قصيدة مفردة ، أو تحبير رسالة مقترحة كان عسرهما عليه أقل و كان نخوضه بها أعجل " (20) .

و لعل السبب في صعوبة تعقب " الخطاب " بالتنقيح و المراجعة لإحكام بنائه يرجع إلى أن " كل مبتدئ شيئاً ، فقوة البدء فيه تفضي به إلى غاية ذلك الشيء ، وكل متعقب أمراً قد بدأ به غيره فإنه بتعقيقه يفضي إلى حد ما بدأ به في تعقيقه ، ويصير ذلك مبدأ له ، ثم تنقطع المشكلة بين المبتدئ و بين المتعقب " (21) ، فكأن تعقب " الخطاب " بالمراجعة يعد بمنزلة إعادة خلق جديد ، أو ولادة ثانية له ، و هنا تكمن الصعوبة التي أشار إليها النقاد .

و هذا الاهتمام ببناء الخطاب الأدبي شعرا كان أم نثراً وفق نظام و نسق لم يكن شيئاً شكلياً يتعلق بالناحية الجمالية للخطاب فحسب، بل إنه في تقدير النقاد ذو أثر فعال في إيضاح المعنى و تبليغه ، فالتأليف الحسن يوضح المعنى ، أما سوء التأليف فإنه يزيده غموضاً إلى درجة التعمية ، و هذا ما نلمسه من خلال قول أبي هلال العسكري: " و حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً و شرحاً ، و مع سوء التأليف ، و رداءة الرصف ، و التركيب ، شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سبياً ، و رصف الكلام ردياً ، لم يوجد له قبول ، و لم تظهر عليه طلاوة ، و إذا كان المعنى وسطاً ، و رصف الكلام جيداً كان أحسن موقعاً ، و أطيّب مستمعاً " (22) .

و قد سموا سوء التأليف و رداءة النظم بالمعاظلة و هي " مداخلة الكلام بعضه في بعض حتى لا يفهم إلا بكد الخاطر ، و تكرار السماع أو النظر " (23) .

و يتحقق نسق " الخطاب النثري " و نظامه بوضع كل عنصر منه في مكانه المناسب له و اللائق به و في ذلك يقول أبو هلال العسكري: " و حسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، و تمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقادم و التأخير ، و الحذف و الزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ، ولا يعمي المعنى ، و يضم كل لفظة منها إلى شكلها ، و تضاف إلى لفقها " (24) ، ويشبه العسكري نظام النص بالعقد الذي أخذت فيه كل خرزة موقعها المناسب لها فيقول : " فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى ، و إن لم يكن مرتفعاً جليلاً ، و إن اختل نظمته فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها ، اقتحمت العين ، و إن كان فايها ثميناً " (25) ، بينما يشبه العتابي الخطاب الأدبي في جمال نظامه و حسن نسقه بالجسم الذي أخذ فيه كل عضو مكانه المناسب له ، فلو " حول رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة ، و تغيرت الحلية " (26) .

و ينسج مسكويه على منوال العسكري حينما يشبه نظام الخطاب و نسقه بالعقد المؤلف من خرزات مختلفة الألوان و الأشكال قد أخذت فيه كل خرزة مكانها اللائق بها فينتظم بذلك جمال العقد و حسنه ، ثم يخلص من ذلك إلى أنه " ها هنا تظهر صناعة الخطابة و البلاغة و الشعر ، و ذلك أنه إذا اختار المختار الحروف المؤلفة بالأسماء حتى لا يكون فيها مستكروه

لا مستنكر، ووضعها من النظم في مواضعها، ثم نظمها نظماً آخر، أعني وضع الكلمة إلى جنب الكلمة، موافقاً للمعنى، غير قلق في المكان، ولا نافر عن السمع، فقد استتمت له الصناعة إما شعراً وإما خطبة، وإما غيرهما من أقسام الكلام⁽²⁷⁾.
والحقيقة أن عملية بناء الخطاب تبدأ من اللفظ المفرد الذي ينبغي أن يتوفر فيه التجانس والتلاؤم الصوتي بين حروفه مروراً بالخلية الأولى والأساسية في الخطاب وهي الجملة بعدها "أصغر وحدة في الخطاب"⁽²⁸⁾ إذ تأخذ فيها كل لفظة مكانها إلى جانب أختها في سلامة من التنافر، إذ "من أفحش المعاييب ألا تقع اللفظة مصاحبة أختها، ولا مزوجة ما جاورها"⁽²⁹⁾،
مروراً بعد ذلك إلى الوحدة الأكبر وهي الفقرة، إلى الفصل، ثم الخطاب ككل.

وعلى مستوى الجملة أو الفقرة ينبغي على الناثر أن يؤلف بين الألفاظ المتشاكلة، والمعاني المتجانسة، بحيث يكون كل لفظ مستديماً لما يشاكله، وكل معنى مرتبط بما قبله ممهداً لما بعده في تنام وانسجام إلى أن يكتمل نماء الخطاب في وحدة عضوية، لأن الخطاب "يبنى على نظام داخلي يجعل منه وحدة محددة، والنظام في النص لا يكمن في ترتيب عناصره (فحسب) وإنما يكمن في شبكة من العلاقات تنشأ بين الكلمات، ومتى كانت هذه العلاقات متكاثرة مكثفة كان النص أوغل في الأدبية"⁽³⁰⁾.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن شبكة العلاقات هذه داخل "الخطاب الأدبي" لامتناهية الدلالة، فدلالاتها تتعدد بتعدد المبدعين والمتلقين عبر الأزمنة والأمكنة، بخلاف الألفاظ مفردة فدلالاتها محدودة، و"لا نهائية الدلالة" هي من المبادئ التي نادى بها نقاد ما بعد الحداثة من التفكيكيين اعتماداً على فلسفة التأويل⁽³¹⁾، وهي من المبادئ التي يمكن مقاربتها في تراثنا النقدي من خلال مقولة الرماني مثلاً "دلالة الأسماء والصفات متناهية، فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية"⁽³²⁾، وكأننا هنا أمام نص نقدي حديث من القرن العشرين.

ويرى أبو هلال العسكري أن سوء التأليف يؤدي إلى الإهام والتعمية مستشهداً على صحة رأيه بنص تطبيقي، فيقول: "وينبغي أن يتجنب الكاتب جميع ما يكسب الكلام تعميمه، فيرتب ألفاظه ترتيباً صحيحاً، ويتجنب السقيم منه، وهو مثل ما كتب بعضهم: "لفلان وله بي حرمه مظلمة"، وكان ينبغي أن يقول: "لفلان وأنا أرعى حرمته مظلمة"، وما يجري هذا المجرى من الترتيب المختار البعيد من الإشكال"⁽³³⁾.

والمقابل يضرب مثلاً تطبيقياً على حسن الرصف، وجودة البناء من رسالة كتب بها بعضهم قائلاً: "ولولا أن أجود الكلام ما يدل قليله على كثيره، وتغني جملته عن تفصيله، لو سعت نطاق القول فيما انطوى عليه من خلوص المودة، وصفاء المحبة، فجال مجال الطرف في ميدانه، وتصرف تصرف الروض في افتتانه، ولكن البلاغة بالابحاز، أبلغ من البيان بالإطناب"⁽³⁴⁾.

وقد تكون المشاكلة بين الألفاظ لا على أساس التشابه في الدلالة فقط، بل قد تكون عن طريق التضاد والتقابل الذي يحقق التوازي بين المعنيين واتحادهما لخدمة الدلالة، فتكون كل لفظة "لايقة بما تقدمها من ألفاظ الجزء من الرسالة... وتكون مستقرة في قرارها، و متمكنة في موضعها حتى لا يسد مسدها غيرها، وإن لم تكن قصيرة قليلة الحروف" كقول الله تعالى: ﴿... و للآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾⁽³⁵⁾... والأولى مع الآخرة، والرضى مع العطية، في نهاية الجودة، وغاية حسن الموقع"⁽³⁶⁾.

ونجد أبا هلال العسكري دائم التوكيد على أن حسن التأليف لا يقتصر على الجانب الدلالي أو اللفظي فقط، بل ينبغي أن يشمل جمال الأسلوب الكامن في العذوبة والسهولة والسلاسة والنصاعة والرونق والطلاوة⁽³⁷⁾.

على أننا نجد القاضي الجرجاني من جهة أخرى يؤكد على أن عناصر التحسين الصوتي في الأسلوب لا تكفي وحدها للبلوغ بالخطاب الأدبي شعرا كان أم نثرا درجة الجودة إذا كان النسخ مهلهلا ، و البناء مضطربا، بل إن ذلك من شأنه أن يجعل صاحبه أبعد ما يكون عن حرفة الأدب إذ يقول : " و أقل الناس حظا في هذه الصناعة من اقتصر في اختياره و نفيه، و في استجاداته و استسقاطه على سلامة الوزن ، و إقامة الإعراب ، و أداء اللغة، ثم كان همه و بغيته أن يجد لفظا مرققا، وكلاما مزوقا، قد حشي تجنيسا و ترصيعا، و شحن مطابقة و بديعا، أو معنى غامضا قد تعمق فيه مستخرجه، و تغلغل إليه مستنبطه، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم، و سوء التأليف، و هلهلة النسخ، و لا يقابل بين الألفاظ و معانيها، و لا يسير ما بينهما من نسب، و لا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب، ولا يرى اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى، و لا الكلام إلا ما صور له الغرض، و لا يحسن إلا ما أفاده البديع، و لا الرونق إلا ما كساه التصنيع " (38).

و يرى المبرد أن مما يفسد بناء الخطاب سواء أكان شعرا أم نثرا أن يلجأ الأديب إلى الاستعانة بأن " يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ، ليصحح به نظما أو وزنا إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منشور كنهوما تسمعه في كثير من كلام العامة مثل قولهم : ألسنت تسمع، أفهمت أين أنت ، و ما أشبه هذا " (39).

و ينبغي ان نؤكد على " وحدة العمل الأدبي بوصفه كلا يتطلب أجزاء خاصة " (40)، و هذه الأجزاء هي ما نعبر عنه بضرورة التوازن و التناسب بين البداية و المتن و النهاية ، إذ " إن في الخطاب مركز جذب يؤسسه منطلقه و تحوم حوله بقية أجزائه " (41)، و يكون كل جزء من هذه الأجزاء مستقرا في مكانه بحيث لا يجوز أن يجعل ما ينبغي أن يكون أولا آخرًا، و ما ينبغي أن يكون آخرًا أولا ، لأن الكاتب البليغ - في نظر ابن المدبر - هو الذي لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه، ولا يقدم آخره " (42)، و هذا يكون كل قسم من أقسام الخطاب النثري متصل بما قبله ممهد لما بعده ، مما أسماه البلاغيون بحسن التلخيص الذي يعني " الانتقال من غرض إلى غرض آخر في القصيدة ، و التوجه من فكرة إلى فكرة أخرى في الكتابة النثرية والخطابة " (43).

و من هنا وجدنا النقاد يهتمون بمقدمة الخطاب النثري و ابتدائه لأنه " أول ما يقع في السمع " (44)، و جعل بعضهم حسن الابتداء من دلائل القدرة على البيان (45).

و قد اشترط النقاد حسن الابتداء في الخطاب النثري لما له من علاقة بجذب انتباه المتلقين، و خلق جو نفسي حميمي بينهم و بين الخطاب، و كلما كانت البداية بدیعة مبتكرة غير مألوفة كلما زاد ذلك في لفت الأنظار وشد الانتباه ، و عادة ما كانت النصوص النثرية تبدأ (بالحمد لله) لما للعلاقة بين العبد و ربه من مكانة في قلوب الناس ، و هذا ما عبر عنه أبو هلال العسكري بقوله : " و إذا كان الابتداء حسنا بديعا، و مليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، و لهذا المعنى يقول الله عز وجل : ألم ، و حم ، و طس ، و طسم، و كهيعص ، فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم مثله عهد ، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده ، و الله أعلم بكتابه ، و لهذا جعل أكثر الابتداءات (بالحمد لله) لأن النفوس تتشوق للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع، و قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتر) " (46).

كما وكند النقاد على ضرورة أن توحى المقدمة بموضوع الخطاب ، و أن يتضمن الابتداء إشارة إلى الموضوع المراد طريقه و معالجته، وفي ذلك يقول ابن المقفع : " ... وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته " (47).

و الشيء نفسه يؤكد العسكري الذي يرى وجوب الإشارة في بداية " الخطاب " إلى موضوعه ، و ألا يترك ذلك إلى آخره، إذ يقول : " ليس يحمد من القائل أن يعمي معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أول ابتدائه حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحسن أن يكون في صدر كلامه دليل على حاجته، و مبين لمغزاه و مقصده " (48).

كما أوصى النقاد بضرورة التوافق و الانسجام بين صدر " الخطاب " و موضوعه بحيث يكون لكل موضوع صدره الخاص الذي يدل عليه ، و يرتبط به، و قد لاحظ الجاحظ ذلك في الخطابة فقال : " فرق بين صدر خطبة النكاح، و بين صدر خطبة العيد، و خطبة الصلح، و خطبة التواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معنائه، و لا يشير إلى مغزائه، و إلى العمود الذي إليه قصدت ، و الغرض الذي إليه نزلت " (49).

و ينبغي أن يكون هناك تناسق و انسجام بين أجزاء الخطاب الثري بحيث تفضي المقدمة إلى المتن ، و يفضي المتن إلى الخاتمة في تسلسل و ترابط ، فمن أوجه الضعف التي لاحظها ابن قتيبة على بعض الكتاب عدم التناسق و الانسجام بين مقدمة الخطاب وصلبه إذ يقول : " و ربما صدر الكاتب كتابه ب " أكرمك الله " و " أبقاك " فإذا توسط كتابه، و عدد على المكتوب إليه ذنوبا له ، قال : " فلعنك الله و أخزأك " فكيف يكرمه الله ويلعنه و يخزيه في حال ؟! و كيف يجمع بين هذين في كتاب ؟ " (50).

و أما الخاتمة فإنها آخر ما يربط الخطاب بالمتلقين ، و آخر أثر منه في نفوسهم ، ويسمى بعضها بالمقطع ، يقول أبو هلال العسكري: " و المقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك " (51) ، بل إننا نجد من النقاد من يعطي كامل الأهمية " للمقطع " على حساب غيره من الأجزاء الأخرى للخطاب ، و كان شبيب بن شيبة يقول : " الناس موكلون بتعظيم جودة الابتداء و بمدح صاحبه، و أنا موكل بتعظيم جودة القطع و بمدح صاحبه " (52) ، و لذلك كان الكتاب يحرصون على أن ينهوا خطاباتهم الثرية بخاتمة حسنة فيها ابتكار و طرافة إذ " قلما رأينا بليغا إلا وهو يقطع كلامه على معنى بديع، أو لفظ حسن رشيق " (53).

و يعدد العسكري ضربا من المقاطع الحسنة كأن تكون حكمة بالغة، أو مثل سائر، أو تشبيه مريح، أو أيمن طريفة، و معان غريبة، كما كتب الصحاح في آخر رسالة له " فإن حنثت فيما حلفت، فلا خطوط لتحصيل مجد، و لا نهضت لاقتناء حمد، و لا سعيت إلى مقام فخر، و لا حرصت على علو ذكر.. وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الضرب لقال : هي الغموس ، لا القسم باللات و العزى ، و مناة الثالثة الأخرى ، فأنتى بأيمن طريفة ، و معان غريبة. و كتب أيضا في آخر رسالة: "وأنا متوقع بكتابك توقع الظمان للماء الزلال ، و الصوام لهلال شوال ... فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع و لفظ شريف " (54).

ولأهميته الخاتمة في بناء الخطاب ، فإننا نجد النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحاح يولونها عنايتهم الفائقة ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - " كان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته (النخلة إذا حان أو ان إدراكها) " (55) ، وكان عمرو بن العاص " إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، و أعطى حق المقام ، و غاص في استخراج المعنى بألف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبعيته (ما يأتي بعده) من الألفاظ " (56).

و ينص ابن المدبر على ضرورة أن يكون ختام الخطاب الأدبي ملائما لموضوعه ومضمونه ، يقول : " و ليكن ماتحتم به فصولك في موضع ذكر الشكوى يمثل "والله المستعان ، و حسبنا الله و نعم الوكيل" ، وفي موضع ذكر البلوى " نسأل الله دفع الخذور، و نسأل الله صرف السوء " ، وفي موضع ذكر المصيبة يمثل " إنا لله و إنا إليه راجعون " ، وفي موضع ذكر النعم يمثل " و الحمد لله خالصا، و الشكر لله واجبا " (57).

و ما اهتمام الأدباء عموماً، و الناثرين خصوصاً بحسن ختام " الخطاب الأدبي " إلا دليل على عنايتهم و اهتمامهم بعقد روابط من الصلة الحميمة الوثيقة بينهم و بين المتلقين ، حتى بعد الانتهاء من قراءة الخطاب أو سماعه بما يتركه فيهم من انطباع حسن.

و لا بد من الإشارة إلى ضرورة أن يأخذ كل قسم من أقسام الخطاب حظه من البروز و التفرد، بحيث يتميز عن غيره من الأقسام، و يتفرد بطابعه الخاص ، و لكنه تميز في إطار الوحدة، و تفرد داخل المجموع، و بروز في إطار النظام، يتفاعل مع بقية الأقسام، و يصنع معها بناء هندسياً شامخاً البنين، مكتمل العناصر، مشرق القسّمات، جميل المنظر ، زاهي الألوان .

الهوامش

- 1- مقدمة في النقد الأدبي : د/ علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1979 ص: 322
- 2- المثل السائر : لابن الأثير ، تحقيق د/ أحمد الحوفي و د/ بدوي طبانة ، دار نخضة مصر ، القاهرة ، دون تاريخ ، 7/4 - المثل السائر : لابن الأثير ، 7/4 .
- 4- الامتاع و المؤانسة : للتوحيدي ، تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون تاريخ، 132/2 .
- 5- عيار الشعر : لابن طباطبا ، تحقيق د/ محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط3، 1984 ، ص: 44.
- 6- من حلية المحاضرة : للحاتمي، تحقيق مظهر الحجي، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2000، 104/1، و ينظر زهر الآداب: للحصري، تحقيق د/ زكي مبارك ، دار الجليل ، بيروت ، ط5 ، 1999، 651/3.
- 7- من أمثلة ذلك أن الجاحظ يستعمل مصطلح "التأليف" و " النظام" ، ينظر الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، ط3، 1969، 209/4 .
- و يستعمل المبرد مصطلح " النسق " ينظر الكامل ، تحقيق حنا الفاحوري ، دار الجليل ، بيروت ، ط1، 1997 ، 457/1.
- و يستعمل ابن وهب مصطلح " النظام" ينظر البرهان في وجوه البيان ، تحقيق د/ حفني محمد شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1969، ص : 129 .
- و يستعمل القاضي الجرجاني مصطلحي "التأليف" و " النسج" ينظر الوساطة بين المتنبي و خصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد الجاوي ، مكتبة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط4، 1966، ص: 413 -و يستعمل الرماني مصطلح " التأليف" ، ينظر النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف ، مصر ، دون تاريخ، ص : 107 .
- و يستعمل العسكري مصطلحي " التأليف" و " الرصف" ينظر الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1981، ص : 179.
- و يستعمل التوحيدي المصطلحات الآتية : " البناء" ينظر المقابسات ، تحقيق حسن السندوبي ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ط1، 1929، ص: 170، و " المشاكلة" ينظر المقابسات ، ص : 154 ، و " المركب" و " التأليف" و " الرصف" ينظر الامتاع و المؤانسة : 132/2 .
- و يستعمل الباقلاني المصطلحات الآتية : " النظم " و "التأليف" و " الرصف" ، ينظر إعجاز القرآن (طبع مع الإتيان في علوم القرآن للسيوطي) دار المعرفة ، بيروت ، دون تاريخ، 68/1 ، 92.
- 8- الكامل : للمبرد ، 457/1 .
- 9 - الحيوان : الجاحظ ، 209/4 .
- 10- الامتاع و المؤانسة : للتوحيدي ، 132/2 .
- 11- في مناهج الدراسات الأدبية: حسين الواد ، سراس للنشر ، تونس، 1985 ، ص : 64 .
- 12- البرهان في وجوه البيان : لابن وهب ، ص : 129 .
- 13- البرهان : لابن وهب ، ص : 129-130 .
- 14- البرهان : لابن وهب ، ص : 130.
- 15- الرسالة العذراء : لابن المدبر (ضمن جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت) المكتبة العلمية ، بيروت ، دون تاريخ ، 194/4 .
- 16- الرسالة العذراء : لابن المدبر ، 195/4 .
- 17 - أدب الكتاب : للصولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ ، ص : 126 .
- 18 - الحيوان : للجاحظ ، 88/1 ، و يقارن بأدب الكتاب ، للصولي ، ص : 157 .
- 19 - ينظر البيان والتبيين : للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجليل ، بيروت ، دون تاريخ ، 14/2 ، والبرهان : لابن وهب ، ص: 168 ،

- 20- المقابسات : للتوحيدي ، ص : 153-154 .
- 21- المقابسات : للتوحيدي ، ص : 154 .
- 22 - الصناعتين : للعسكري ، ص : 179 .
- 23- مفاتيح العلوم : للخوارزمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ ، ص : 49 .
- 24- الصناعتين : للعسكري ، ص : 179 .
- 25 - الصناعتين : للعسكري ، ص : 179 .
- 26- الصناعتين : للعسكري ، ص : 179 .
- 27- الهوامل و الشوامل : للتوحيدي و مسكويه ، تحقيق أحمد أمين و السيد أحمد صفقر ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة ، 1951 ، ص : 23 .
- 28- الأسلوبية و تحليل الخطاب: د/ نور الدين السد، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 1997 ، 20/2
- 29- الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره : للحاتمي ، تحقيق د/محمد يوسف نجم ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، 1965 ، ص : 22 .
- 30- في مناهج الدراسات الأدبية : حسين الواد، ص : 45 .
- 31- ينظر في ذلك المرايا المحدثه : د/عبد العزيز حمودة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1998 ، ص : 384-396
- 32- النكت في إعجاز القرآن : للرومي ، ص : 107 .
- 33- الصناعتين : للعسكري ، ص : 170 .
- 34- الصناعتين : للعسكري ، ص : 187 .
- 35- سورة الضحى : آية 5 .
- 36- الصناعتين : للعسكري ، ص : 508 .
- 37- ينظر الصناعتين : للعسكري، ص : 69 ، 71 ، 72 ، 159 ، 187 .
- 38- الوساطة : للحرجاني ، ص : 413 .
- 39- الكامل : للمبرد ، 37-36/1 .
- 40- النقد الأدبي الحديث: د/ غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، 1982 ص : 210 .
- 41- لسانيات النص . مدخل إلى انسجام الخطاب :محمد خطابي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب،ط1،1991،ص:54
- 42- الرسالة العذراء : لابن المدير (ضمن جمهرة رسائل العرب) ، 184/4 .
- 43- مفاهيم الجمالية و النقد في أدب الجاحظ : د/ ميشال عاصي، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ط2 ، 1981 ، ص : 147 .
- 44- الصناعتين : للعسكري ، ص : 494 .
- 45- ينظر الصناعتين : للعسكري ، ص : 489 .
- 46- الصناعتين : للعسكري ، ص : 496 .
- 47 - البيان و التبيين : للجاحظ ، 116/1 .
- 48- الصناعتين : للعسكري ، ص : 501 .
- 49- البيان و التبيين : للجاحظ ، 116/1 .
- 50- أدب الكاتب : لابن قتيبة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط4 ، 1963 ، ص : 15
- 51- الصناعتين : للعسكري ، ص : 494 .
- 52- البيان و التبيين : للجاحظ ، 112/1 ، والصناعتين : للعسكري ، ص : 502 .
- 53- الصناعتين : للعسكري، ص : 502 .
- 54- الصناعتين : للعسكري ، ص : 502-504 .
- 55- الصناعتين : للعسكري ، ص : 498 .
- 56- الصناعتين : للعسكري ، ص : 497 .
- 57- الرسالة العذراء : لابن المدير (ضمن جمهرة رسائل العرب) 184/4 .